

المارونية في ذكرى أبيها

بقلم الياس بجاني

مسؤول لجنة الإعلام في المنسقية العامة للمؤسسات اللبنانية الكندية

لبنان ال ١٠٤٥٢ كيلو متر مربع، هذا البلد الصغير بمساحته، الكبير بعطاءاته، المحمي بشفاة أمه السيدة العذراء، المقدس بترابه المجدول بدم وعرق شهدائه، لبنان الرسالة والتعاش والقيم، لبنان جبران وهنرييل حيرام وقدموس والبستاني والبشير وفخرالدين وشربل والحرديني ورفقة، هذا اللبان، فيه تخمرت المارونية، ومنه انبعثت مبشرة بالإيمان والإبداع في كافة أرجاء الدنيا. حملته معها حضارة وعلماً وعطاءً، حل أينما هي حلت، فعُرِّفَ به وعُرِّفَ بها.

لقد انطلقت المارونية من بلاد إنطاكية في القرن الرابع على يد مار مارون ورهبانه الأبرار، ثم قدَّرَ الله لها أن تستوطن لبنان وتجعل من اللبنانيين رسل محبة وفداء. لقد هدت المارونية اللبنانيين وحولت وطنهم إلى قلعة للإيمان والصمود، ثم انطلقت منه لتنتشر مبشرة العالم بقيمتها وبمعتقداتها الدينية، وبالحضارة الفينيقية المميزة. فمن كان ذلك القديس المؤسس للمارونية، وأين جعل منسكه؟ وكيف تفرق أبناؤه؟

في التاسع من شهر شباط من كل سنة تحتفل الكنيسة المارونية في بذكرى أبيها مارون الراهب والناسك والقديس. في هذا اليوم يعود الموارنة إلى ذواتهم، فيتأملون في ما عانوه من صعاب، منذ نشأت كنيستهم، وحتى يومنا هذا، بجلوها ومرها، مستعيدين طاقاتهم في التحفز والعزم والإيمان.

مارون الراهب والناسك الأرامي العرق، السرياني المذهب واللغة، (كما يقول المؤرخ الكبير فؤاد أفرام البستاني) نشأ في مدينة قورش شمالي شرقي انطاكية وعلى مسافة يومين منها، وإلى الشمال الغربي من "هيرابوليس" (منبج) عاصمة سوريا الثالثة أو "الفراتيه". ولا تزال "قورش" ماثلة للعيان حتى اليوم على نحو خمسة عشر كيلومتراً إلى الشمال الغربي من "كلس" في تركيا، وعلى نحو سبعين كيلومتراً شمالي مدينة حلب.

طبقاً للأب "بطرس ضو"، و"البطريك الدويهي" و"فؤاد أفرام البستاني"، فإن مارون الراهب اختار قمة يبلغ ارتفاعها نحو ثمانمئة متر في "جبل سمعان" والذي كان يُدعى آنذاك

"جبل نابو"، نسبة إلى الإله الوثني "نابو"، (بين انطاكية وحلب وقورش) كان أقيم عليها قديماً هيكلٌ وثني تداعت أركانه على توالي الأحقاب، ثم أقفرت المنطقة حتى غدت بمعزل عن حركة السكان. فقصد إليها مارون في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي ارتياداً للخلوة والطمأنينة، فكرس الهيكل الوثني المخصص للأبالسة منذ القدم، وأخذ يستعمله في عبادة الإله الواحد. وكان يقضي معظم وقته في العراء متعبداً لا يستعمل المعبد إلا لتقديم الذبيحة. في أعماله التقشفية التي تميزت بقضاء معظم الوقت في العراء صيفاً شتاءً. لم يكتفِ مارون بتمريس نفسه على المعتاد منها، كالصوم والصلاة والركوع والسجود والتأمل ومناجاة الرب وحبس نفسه في منطقة محددة وقهر الجسد وتحريم الجلوس أحياناً والوعظ والإرشاد وتعزية المصابين والحزاني. كل هذا لم يكتفِ به، بل كان يزيد عليه ما ابتكرته حكمته جمعاً لغنى الحكمة الكاملة، فمنحه الرب قدرة الشفاء.

ذاع صيته في كافة أرجاء المنطقة وقام بعجائب لا تحصى ولا تعد بواسطة دواء واحد، ألا وهو الصلاة، لكن أعماله لم تقتصر على شفاء أمراض الجسد، بل كان يبرئ أيضاً أمراض النفس. فكان يشفي إنساناً من البخل، وآخر من الغضب، ويعلم رجلاً الاقتصاد، ويعلم غيره قانون العمل، وينهي واحداً عن استباحة المحرمات، ويوقظ آخر من غفلة التواني (حسبما جاء في كتاب معاني الأيام للمؤرخ الكبير فؤاد أفرام البستاني).

تتلمذ على يد القديس مارون عشرات الرهبان والنسك، وتأسست في أيامه عشرات الأديرة، وبنيت مئات الكنائس، وتحول إلى المسيحية بفضل إيمانه معظم سكان المنطقة. وبعد أن أدى مارون رسالته الأرضية بأمانة وصدق وتفاني، توفي في سنة ٤١٠ ميلادية عن عمر ناهز السبعين عاماً قضاها في عطر القداسة. مات القديس محاطاً بالمئات من تلاميذه وأتباعه من المؤمنين، وكان أوصى أن يدفن في نفس قبر أستاذه الشيخ الجليل الناسك "زايينا" في بلدة "كيثا" المجاورة لقورش، حيث تنسك وبشر، وذلك عرفانا منه بحميل "زايينا"، إذ كان المؤمنون قد شيدوا هناك على مقربة من قبره هيكل كبير سموه هيكل الناسك زايينا. إلا أن وصيته لم تنفذ ودفن في قرية في جنوب القورشية قريبة جداً من "كيثا" بعد أن تمكن سكانها وكانوا كثيري العدد من أخذ جثمان القديس عنوة للتبرك به واستمداد القداسة منه، فشيدوا على قبره كنيسة كبيرة جداً في بلدتهم ظلت قائمة

مئات السنين، وما زالت آثارها موجودة حتى الآن (تاريخ الموارنة للأب بطرس ضو). هذا وبني رهبان القديس مارون ديراً كبيراً على اسمه، بالقرب من نبع نهر العاصي، ساهم في الحفاظ على عقيدة الدين المسيحي، وفي نشر تعاليم الإنجيل في لبنان وسوريا وسائر بلاد انطاكية والبلدان المجاورة. لقد كان الدير منارة للعلم والثقافة والتقوى والشهادة لسنين طويلة إلا أنه دمر في النصف الأول من القرن العاشر خلال عهود الاضطهاد القاسية التي تعرضت لها الكنيسة في بلاد الشرق وقتل خلالها مئات الرهبان الموارنة دفاعاً عن العقيدة الحقّة التي آمنوا بها.

بعد دمار دير مارون انتقل رهبانه إلى جبال لبنان المنيعّة، وأسسوا مع اللبنانيين والمردة ما ي، عرف اليوم بالأمة المارونية المنتشرة في كافة أرجاء العالم، جاعلين من لبنان ملاذاً لكل مضطهد وطالب للحرية والإيمان. إن ما ميز ويميز الموارنة هو حبهم الجارف للعذراء مريم وعلاقتهم الوثيقة بها على ممر العصور، حتى أصبحت هذه العلاقة عنصراً جوهرياً في الروحانية المارونية، وتكاد لا تخلو قمة جبل أو مدخل بلدة، أو حتى منزل في الجبل اللبناني من تمثال أو مزار لها.

المؤرخ الكبير فؤاد أفرام البستاني وصف المارونية بما يلي: "المارونية إيمان، وعقل، ومذهب في الحياة، إيمان وطيد بالعقيدة الكاثوليكية، وخضوع بصير للنظام الرماني، ويقينٌ بانتماء للحق، وشمول الخير، وواجب السعي الدائب في محبة القريب والغريب. عقلٌ عاقلٌ منفتحٌ على مختلف الثقافات في العالم، يأخذ منها ويفعل فيها. يأخذ مختاراً، وينتخبُ واعياً، ويهضم متمثلاً، ويفعل مخلصاً في سبيل الحق والخير والجمال لصحيح. هذا ما جاءت به المارونية لبنان، فعملت في تطوّره حتى عُرف بها وعُرفت به. فلا وطن لها سواه، ولا كيان له بدونها، فهما ثابتان على كروم الأيام، لا انتقاصاً من حقّ قريب ولا عداءً لجار، مندفعان ولا قهور، صابران ولا يأس، راجيان ولا غرور."

لم تعرف المارونية في تاريخها القنوط يوماً وكانت دائماً تُحوّل، وبفضل إيمان شعبها، الهزائم إلى انتصارات، والحزن إلى فرح، واليأس إلى أمل ورجاء. إن الأمة بمعناها الكامل كما يقول "الأب بطرس ضو" تعني أربعة عناصر رئيسية هي: أرض، وشعب، وحضارة، وكيان سياسي مستقل، والمارونية تمكنت من تأمين هذه العناصر وبنجاح خلال حقبات

متعددة من تاريخها وكانت دائما تناضل لاستعادة ما تفقده منها مقدمة التضحيات الجلل بعزيمة صلبة وعناد لا يلين.

اليوم ولبنان في حالته المأساوية من احتلال وتبعية، ما أحوجنا إلى شفاعة قديسين من أمثال مارون... فيا أيها القديس، يا فخر النسك، نتضرع إليك لتستمد لنا نَعَم الثبات والإيمان والتقوى والتسامح، وتعيننا على مواجهة الشدائد بعزيمة وإيمان. نتضرع إليك أن تعيد السلام والمحبة إلى أرضنا القداسة والقديسين، وتفك أسر شعبنا من نير الاحتلالات، ليعود لبناننا ملجأ لكل مضطهد، وملاذاً لكل مظلوم، وواحة للحرية للتعايش، ورسالة للمحبة والسلام.

كندا-تورنتو في ١٩٩٩/١/٦